

"وعلى الأرض السلام"

بقلم: شكري حبيبي

بعد الحادث المروع في نيويورك وواشنطن، الذي هزّ العالم في الحادي عشر من أيلول (سبتمبر) الماضي، ورد الفعل عليه بالهجوم على أفغانستان، لا بد أن الكثيرين يتساءلون في ذكرى عيد الميلاد: أين هو السلام الذي بشرت به الملائكة عند ولادة المخلص الرب يسوع المسيح. ولا بد أن هذا السؤال كان يتكرر دائما في كل عصور التاريخ، عند قيام الحروب ونشوب الثورات الدموية، وسقوط مئات الألوف من البشر.

عندما كنت طالبا في المدرسة الثانوية بدمشق، أقامت المدرسة المسؤولة عنها إحدى الطوائف المسيحية، احتفالا بمناسبة عيد الميلاد المجيد. وفوجئت بحرارة التصفيق وعلو الهتاف من قبل الجمهور عندما ردد الممثلون على خشبة المسرح أناشيد الملائكة، ولا سيما عند قولهم: "وعلى الأرض السلام." لكن استغرابي هذا زال عندما علمت أن الذين صفقوا بحرارة كانوا ينتسبون إلى حزب سياسي من شعاراته المرفوعة السلام العالمي. فهل هذا هو السلام المقصود بتعبير "وعلى الأرض السلام"؟

دعونا نعود إلى نص الترنيمة التي أنشدها جمهور الملائكة عشية ولادة المخلص الطفل يسوع، لنكتشف المعاني الحقيقية من ورائها. إذ سبّحوا الله قائلين: "المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام وبالناس المسرة." (الإنجيل بحسب بشارة لوقا ٢: ١٤) وفي ترجمة أخرى باللغة الإنكليزية (NIV) نقرأ ما يلي:

“Glory to God in the highest, and on earth peace to men on whom his favor rests.”

وبتعبير آخر إن هذه الترجمة والتي هي أقرب إلى النص الأصلي تقول: "المجد لله في الأعالي وعلى الأرض سلام للذين سرّ بهم الله." إذن إن السلام المقصود في هذه الأناشيد، ليس هو السلام بين الدول والشعوب، وانتهاء عصر الحروب الدموية، بل هو يشير إلى نوع آخر من السلام. فما هو السلام الذي أشارت إليه هذه التسبيحة التي يرددونها ملايين البشر عشية الاحتفال بعيد الميلاد في كل عام؟

لنلاحظ أن السلام يُعطى للذين سرّ بهم الله. ويأتي السؤال البديهي من هم هؤلاء الذين سرّ بهم الله؟ لو عدنا إلى كلمة الله كما جاءت في الكتاب المقدس، لوجدنا أنه لم يوجد حتى ولا شخص واحد سرّ به الله. "الرب من السماء أشرف على بني البشر لينظر هل من فاهم طالب الله. الكل قد زاغوا معا فسدوا. ليس من يعمل صلاحا ليس ولا واحد." (مزمور ١٤: ٢ و٣) والنتيجة أن جميع البشر هم في حالة عداوة مع الله القدوس. إذا كان هذا هو الوضع فكيف سيُسّرُ الله ببعض الناس؟ وعلى أي أساس؟

للجواب نقول: يوجد شخص واحد سرّ به الله الآب، وهو شخص الرب يسوع المسيح، الذي نحتفل بولادته هذه الأيام. فعندما عمدَ يوحنا المعمدان يسوع المسيح في نهر الأردن، إذا السموات قد انفتحت، ورأى يوحنا روح الله نازلا مثل حمامة وآتيا على المسيح، وسُمع صوت من السموات قائلا: "هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت." (بشارة متى ٣: ١٧) وتكرر الأمر على جبل التجلي، عندما تغيرت هيئة المسيح أمام تلاميذه بطرس ويعقوب ويوحنا، وأضاء وجهه كالشمس، وبعد أن قال بطرس للمسيح: "يارب جيد أن نكون ههنا. فإن شئت نصنع هنا ثلاث مظال. لك واحدة ولموسى

واحدة ولايليا واحدة. وفيما هو يتكلم إذا سحابة نيرة

ظللتهم وصوت من السحابة قائلا: هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت. له اسمعوا." (بشارة متى ١٧: ٤ و٥) إذن إن الرب يسوع المسيح هو الوحيد الذي سرّ به الله الآب. وليس هذا فحسب، بل يبدو واضحا وكنتيجة لهذا الإعلان، أن الله لا بد أن يسر بكل إنسان يأتي إليه من خلال الرب يسوع المسيح. ولهذا أنشدت الملائكة عند ولادة المخلص المسيح: "المجد لله في الأعالي وعلى الأرض سلام للذين سرّ بهم الله." أي بولادة المسيح حلّ الزمان الذي سيحصل به، كل من يثق بهذا المخلص الفريد العجيب على سلام الله الحقيقي. لكن ما هو نوع السلام الذي يحصل عليه كل من يؤمن بالمسيح؟

أولا السلام مع الله: بعد أن شرح الرسول بولس في الأصحاحات الأربعة الأولى في رسالته إلى رومية، كيف يتبرر الإنسان الخاطئ أمام الله، وذلك عن طريق الإيمان بالمخلص المسيح وعمله الكفاري وقيامته المجيدة، عاد وبدأ الأصحاح الخامس بالقول: "فإذ قد تبررنا بالإيمان لنا سلام مع الله بربنا يسوع المسيح." (رومية ٥: ١) إن الإنسان الخاطئ هو في حالة عداوة مع الله. كما ذكرنا قبل قليل. ولن تزول هذه العداوة، ويحل السلام بين الله القدوس والإنسان الخاطئ، إلا عندما يضع الإنسان ثقته الكاملة بالمخلص المسيح، وأنه أخذ دينونة خطايه على الصليب، وقام من بين الأموات لكي يمنحه الغفران الكامل، والحياة الروحية الجديدة والخلود. وبتعبير آخر إن كل من يتبرر بالمسيح، يُسر به الله، ويقيم عهد السلام معه، ويصبح من أولاده المقربين إليه. لهذا لم يكن غريبا أن يتنبأ النبي أشعيا عن هذا المخلص الفريد أنه "رئيس السلام." لأنه سيحقق السلام أولا بين الله القدوس والإنسان الخاطئ.

ثانياً: سلام القلب من الداخل: يخبرنا الكتاب المقدس أنه لا يوجد سلام للإنسان الخاطيء. "لا سلام قال الرب للأشرار." (أشعيا ٤٨: ٢٢) وهذا أمر طبيعي، إذ نتيجة الخطية الخوف والإضطراب والقلق. لكن قبل أن يذهب الرب يسوع المسيح إلى الصليب، قال لتلاميذه: "سلاماً أترك لكم. سلامي أعطيكم. ليس كما يعطي العالم أعطيكم أنا." (بشارة يوحنا ١٤: ٢٧) فعندما يؤمن الإنسان بالرب يسوع المسيح، يزول الخوف والقلق، ويُحلُّ الله في قلبه السلام الحقيقي. وكتب الرسول بولس إلى المؤمنين بالمسيح أيضاً قائلاً: "وسلام الله الذي يفوق كل عقل يحفظ قلوبكم وأفكاركم في المسيح يسوع." (فيلبي ٤: ٧) هذا السلام الحقيقي الذي يملأ القلب، ولا يعرفه أو يدرك كنهه الناس. هذا السلام الذي يسيطر على قلب المؤمن، حتى وسط الظروف الصعبة والمحن القاسية. ومن المعروف أن السلام هو من ثمر الروح القدس في المؤمن. ولهذا أنشد المرنم قائلاً:

بر سلام مع سرور أوصاف ملك الباري

تبقى إلى دهر الدهور للمؤمن المختار

هذا سلام المؤمنين من ربهم حلو ثمين

سلام سلام سلام كل حين

هذا سلام لي شراه رب الفدى بالصلب

كالنهر يجري في صفاه يروي ظماء القلب

إن تطم حولي النائبات كاللج وسط البحر

يدم سلامي في ثبات أساسه في الصخر

ثالثاً: السلام بين الإنسان وأخيه الإنسان: عندما ولد الطفل يسوع المسيح، كان العالم يقسم إلى قسمين: يهود وأمم. لكن بعد مجيء المسيح وإتمامه لعمل الفداء انتهى هذا الانقسام وإلى الأبد. إذ كتب الرسول بولس قائلاً: "لأنه هو سلامنا الذي جعل الاثنين واحداً ونقض حائط السياج المتوسط. أي العداوة. مبطلاً بجسده ناموس الوصايا في فرائض لكي يخلق الاثنين في نفسه إنساناً واحداً جديداً صانعاً سلاماً. ويصالح الإثنين في جسد واحد مع الله

بالصليب قاتلا العداوة به. ف جاء وبشركم بسلام أنتم البعيدين والقريبين. " (أفسس ٢: ١٤-١٧) أي لا يوجد في المسيح فرق بين يهودي وأممي، لأن المسيح بمجيئه أزال حاجز العداوة، وأحل السلام بينهما. ولنلاحظ قول الرسول بولس أن هدف الله من خلقه هذا الإنسان الجديد هو أن يصنع السلام. ولهذا دُعينا كمؤمنين أن نتبع السلام مع الجميع. وقال الرب يسوع المسيح نفسه: "طوبى لصانعي السلام. لأنهم أبناء الله يدعون." (متى ٥: ٩)

هذا هو السلام الذي بشرت به الملائكة عشية الميلاد، السلام بين الله والإنسان، السلام في القلب، السلام بين الإنسان وأخيه الإنسان. ولهذا ليس غريبا أن تكون بشارة الإنجيل هي بشارة السلام. "وحاذين أرجلكم باستعداد إنجيل السلام." (أفسس ٦: ١٥) أما المبشرون بهذا الإنجيل فقيل عنهم: "ما أجمل أقدام المبشرين بالسلام بالمبشرين بالخيرات." (رومية ١٠: ١٥) فهل اختبرت قارئ هذا السلام العجيب؟ وعندها تستطيع أن تتشد مع الملائكة ومن كل القلب: "المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام وبالناس المسرة."